عراك فى معترك

أى معترك !

فصل فى الرمزية

للأستاذ زكى طليمات

فى مقالينا السابقين[1] ، دفعنا تهماً مصنوعة لا تقوم على حجج علمية ، كما كشفنا عن مغالطات صريحة متعمدة لم يجد الأستاذ محمد متولى سواها مطية للرد علينا ، ليوهم نفسه ويوهم القارىء العابر أنه سوّد ثلاث صفحات تلمع ببهرج الجدل الفلسفى

فعلنا هذا بعد أن جعلنا دبر آذاننا سباباً ومهاترات لفظية من جانبه تقيم الحجة على أن الأستاذ متولى لم ينزل إلى موضوعية النقد فيما نحن بصدده ، بل انحرف إلى أطراف الموضوع يشدها ويشدها ، متخذاً منها أرجوحة تطوحت به إلى فضاء ما كنا نحب أن نراه يشتل فراغه !

هول الرمزية الفنية

وإذا قلنا إن متولى لا يريد أن يفهم ما نكتب ، أو هو يفهمه ثم يتجاهله ، لما قررنا غير الواقع !! وآية ما نذهب إليه — وقد سقنا قبل ذلك آيات بينات — أننا قررنا ، فيما سبق أن كتبناه[2] رداً على مقاله الأول[3] ، أن متولى يخلط بين ألوان الرمزية ، وأيدنا ذلك بقولة من كلام (ريبو) نفسه ، مرجع متولى الأوحد فى كل جدل[4] ، ثم شفعنا ذلك بتعليق آخر وارد فى نفس الكتاب (صفحة ١٦٩ — ١٧١) ، وهو تأييد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فكان أن طلع علينا متولى بما زاده إمعاناً فى خطئه وفى حيرته ، ومرد هذا أن متولى هو أول من أسمى الرمزية الميتافيزيقية ، أو رمزية ما وراء الطبيعة ، أو الرمزية الفلسفية عند (ريبو) ، باسم (الرمزية الفنية)[5] وها نحن أولاء نسجل جملته التى وجهها إلى الدكتور بشر فارس: « ألست تحدثنا بهذا النزوع الصوفى ناسياً الفرق بين الرمزية الصوفية التى تفيض عن المخيلة والشعور ، والرمزية الفنية التى تعتمد على المخيلة مضافاً إليها عنصر عقلى كما يقول ريبو » . أسمى متولى هذه التسمية عن عدم تثبت أو عن قصد مرسوم — أيهما لا أدرى — فلما جاريناه تساهلاً فى هذه التسمية التى هى وليدة مخيلته المبتدعة وليست وليدة مخيلة (ريبو) ، وناقشناه على هذا الأساس ليفهمنا ويتبعنا ، مدللين على أن متولى يخلط بين ألوان الرمزية لينفى عن مسرحية (مفرق الطريق) طابع الرمزية الأصيل ، قام يتهمنا بما أخذناه عليه ، وكأنه يأبى أن ينزل إلى حق أو حجة أو برهان ...

ولكننا أوتينا الصبر والجلد ، وها نحن أولاء نقدم فصلاً (فى الرمزية) كما أرادها (ريبو) فى محاولته (Essai sur l'imagination créatrice)[1] ، وليس كما أرادها الأستاذ متولى فى مقاليه السابقين ، وسنسوق فى عرض هذا الفصل الأخطاء التى تورط فيها متولى عفواً أو عمداً

المخيلة فى رأى ريبو

يقسم (ريبو) المخيلة قسمين رئيسيين عامين كلاهما إزاء الآخر مكان الماء من النار

١ — القسم الأول ، وأسماه (ريبو) المخيلة المصورة Imagination Plastique وخاصيته وضوح الصور الجزئية وتحددها ، وقربها من الإدراك ، وإيهامها بأنها حقائق ، وتداخل بعضها فى بعض لصلات بينها موضوعية ، قابلة للتعيين بدقة ، ومن ضروب هذه المخيلة : مخيلة المثال والمهندس والشاعر الوصفى ، وبعض أرباب العلوم والصناعات

٢ — والقسم الثانى ؛ وأطلق عليه ريبو اسم (المخيلة السيالة) Imagination Diffluente وخاصيته التقريب بين صور جزئية غامضة ملتبسة فياضة ، ويكون هذا التقريب على هوى الاستعداد اللاشعورى من غير قاعدة ولغير سبب منطقى . ومن ضروب هذه المخيلة : أحلام اليقظة ، وجولان الفكر ، وتلفيق القصص ، وبعض التصورات الدينية ، وبعض ألوان الفن ، مثل فن الرمزية ولا سيما « الأدب الرمزى » الذى كان فى عصر (ريبو) حين صدور كتابه ، أى قبل عام ١٩٠٠

(١) الرسالة رقم ٣٨٣ ، ٣٨٤

(٢) الرسالة رقم ٣٧٩ ص ١٥٤٨ العمود الأول . س ٢٩

(٣) الرسالة رقم ٣٧٦

(٤) طبعة باريس ١٩٢٦ ص ١٩٦

(٥) راجع مقال الأستاذ متولى . الرسالة رقم ٣٧٦ ص ١٤٤٩ س ١٠ العمود الأول

(١) مرجعنا فى هذا البحث الطبعة السابعة من هذا الكتاب التى صدرت فى باريس سنة ١٩٢٦

ويذهب (ريبو) بعد ذلك إلى أن للمخيلة أنواعاً أخرى أقل عموماً من القسمين السابقين . منها (المخيلة الصوفية) . وفى رأى (ريبو) أن هذه المخيلة الصوفية تمت بسبب إلى « المخيلة السيالة » ولا سيما فى شكلها الشعورى ، وإن كانت لها خصائصها ، وهنا يحلل (ريبو) هـذه المخيلة ، ويميزها عن المخيلة الدينية والمخيلة الفلسفية[1]

ذلك هو مجمل مذهب (ريبو) فى المخيلة على أقسامها وضروبها . والآن نرجع إلى ما كتبه الأستاذ متولى فى الرمزية ، ونراجع استشهاداته لتبيين مدى فهمه ومقدار أمانته وهو يستند إلى كتاب مطبوع متداول . وفيما سنورده أقوال جديدة وأخرى سبق أن رددنا بها أخطاء الأستاذ متولى فى مقالاته السابقة ، وقد آثرنا تكرارها لترد متراصة فى صعيد واحد مع هذا الفصل ، بعد إيفائها حقها من الشرح والبيان :

١ — ظن متولى أن الرمزية فى توطئة مفرق الطريق محض صوفية ، فخاطب صاحب المسرحية قائلا : « ألست تحدثنا بهذا النزوع الصوفى ناسياً الفرق بين الرمزية الصوفية التى تفيض عن المخيلة والشعور ، والرمزية الفنية التى تعتمد على المخيلة مضافاً إليها عنصر عقلى ، كما يقول (ريبو) »[2]

وإلى القارئ نص (ريبو) ص١٩٦ س٨ــ ١١ عن التفريق بين الرمزية الدينية ، ورمزية ما وراء الطبيعة أو الفلسفية : « إن الرمزية الصوفية إذا اتجهت نحو الدين فإنها تعتمد على عنصرين أساسيين : هما التخيل والشعور ، وإذا اتجهت نحو الفلسفة أو ما وراء الطبيعة فإنها تعتمد على المخيلة مضافاً إليها عنصر عقلى واعن » فالقارئ يرى من معارضة حديث متولى بنص (ريبو) أن الناقد اقتصف الكلام إذ نسب إلى ما يسميه هو (الرمزية الفنية) ما خص به (ريبو) « الرمزية الصوفية » المتجهة نحو ما وراء الطبيعة أو الفلسفية . هذا ، وأما العنصر الذى خص به (ريبو) « المخيلة السيالة » فهو الاضطراب facteur émotionnel (راجع كتاب (ريبو) المذكور ص ١٧١ س ١٠ ــ ١٢) . وقد تقدم أن « المخيلة السيالة » هى التى تتمثل فى فن الرمزيين l'art des symbolistes . وهذا الفن — ومعظم كلام (ريبو) عليه فى ناحية الأدب ، وثمة إشارة إلى ناحية التصوير — يصبح بجرة قلم من الأستاذ متولى يحمل اسم « الرمزية الفنية » !!!

وللقارئ أن يتأمل كيف خلط متولى الرمزية الصوفية بالرمزية فى الأدب والتصوير فجعلهما شيئاً واحداً ، هذا فى حين أنهما عند (ريبو) منفصلان أساساً وتقع كل منهما فى باب مستقل عن الآخر

هذا والمتمعن ذو النظرة العلمية السليمة فى توطئة « مفرق الطريق » يلحظ أن « الاضطراب » facteur émotionnel هو من أساس الإنشاء الفنى فيما نريد أن نقرره (راجع مثلاً القسم الخاص بالرقص فى التوطئة المذكورة)

٢ — يعود الأستاذ متولى إلى الرمزية الصوفية التى فى التوطئة الفنية البليغة فيقول مخاطباً صاحب المسرحية : « ألم تحدثنا بهذا أيضاً مع أنه وصف للتخيل الصوفى الذى يؤلف بين الصور الباطنة المبهجة ويستخرج منها رموزاً يستعملها كما هى بعكس الرمز فى الفن الذى يحصل من (تحليل الصور) والحركات والألوان ؟ »[1]

وإلى القارئ نص (ريبو) (ص ١٨٧ س ١٧ — ٣٠)

« إن مصدر طرافة المخيلة الصوفية أنها تحوّل الصور المعينة Images concrètes إلى صور رمزية فتستعملها على أنها كذلك comme telles لا كما هى ، ونوع تعبير المخيلة الصوفية لا بد له من أن يكون تركيباً

وتختلف الرمزية الصوفية — بسبب هذا النوع وبالأدوات التى تستخدمها — عن المخيلة الشعورية affective التى وصفناها آنفاً (السيالة) وعن المخيلة الإحساسية sensorielle (يعنى المصورة[2]) التى (تستخدم) الصور والحركات والألوان على أنها لها قيم خاصة »

فالقارئ يرى أن متولى عكس الكلام وقلب الحقائق ، إذ نسب إلى (المخيلة السيالة) ما نسبه (ريبو) إلى (المخيلة المصورة) من أن الصور والحركات والألوان « تستخدم » فيها ، (لا تحلل كما توهم متولى فى الترجمة !) على أن لها قيماً خاصة ، وقد

(١) نص الكتاب السابق الذكر . القسم الثالث ، الباب الأول والثانى والثالث ، ص ١٤٢ ــ ١٩٧ .

(٢) مقال الأستاذ متولى الرسالة ٣٧٦ ص ١٤٤٩ س ١٠

(١) مقال الأستاذ متولى ــ الرسالة ٣٧٦ العمود الأول ص ١٤٤٩ س ١٨ ــ ٢١ .

(٢) تقدم بنا فى عرض مذهب ريبو أن « المخيلة السيالة » تواتمها الشعور affective ، فى حين أن « المخيلة المصورة » تواتمها الاحساس sensorielle . راجع كتاب « ريبو » ص١٥٤ س٣ــ٥ ، ص١٨٤ كلها

تقدم بالقارئ أن (المخيلة السيالة) ضد (المخيلة المصورة) وها نحن أولاء نسجل نص (ريبو) في التفرقة بين هاتين المخيلتين كما هو وارد في الكتاب المذكور ص ١٦٣ س ١ — ٢ ، ص ١٦٥ س ٤

Ainsi l'imagination dtffluente est, traits pour trais, le contraire de l'imagination plastique.

٣ — ويقول الأستاذ متولى : « ثم ما رأيك في أن (ريبو) يقصد بالرمز في الفن أن يفقد بعض الألفاظ استعماله المعقول المعروف ليدل على معنى جديد يبنيا أنت[1] »

وإلى القارئ نص ريبو « ص ١٧٠ » عند الكلام على أساليب الكتاب الرمزيين الذين يعمدون إلى الإيحاء في التعبير ويترجون بالألفاظ عن اضطراباتهم أكثر مما يترجون عن تمثلاتهم : « الأسلوب الأول أن تستعمل الألفاظ الجارية مع تبديل مدلولاتها المتعارفة ، أو أن يؤلف بينها بحيث تفقد معانيها المحددة ، وأما الأسلوب الثاني فاستعمال ألفاظ جديدة أو ألفاظ مهجورة ، وأما الأسلوب الثالث — وهو الأقطع هنا — فأن تجعل للألفاظ قيمة اضطرابية فحسب »

فأنت ترى أن السيد متولى استشهد بجزء من كلام (ريبو) ليؤيد نظره المغرض ، وإلا فكيف يبرر وقوفه عند الشطر الأول من الأسلوب الأول لكتاب الرمزيين ، ثم تركه الشطر الثاني من هذا الأسلوب ، ثم الأسلوبين الآخرين ؟ !

سبب هذا الترك المتعمد ، ثم هذه الترجمة البتراء ، أنه جاء في توطئة (مفرق الطريق) أن مؤلفها يبعد الرمز عن التشبيه والكناية ومختلف ضروب المجاز — وهو ما قصد إليه (ريبو) في الشطر الأول من الأسلوب الأول — وعلى ذلك فقد زين اعتساف النقد المغرض لمتولى أن يسقط من كلام (ريبو) ما لا يصح أن يكون عكازاً له ! !

٤ — وهناك خلط آخر ، والعجب ممنوع مقدماً ...

وقف القارئ في عرضنا لمذهب (ريبو) على أن ريبو يدخل تحت (المخيلة السيالة) بعض التصورات الدينية وبعض ألوان الفن . ويشرح ريبو كيف تدخل هذه وتلك تحت المخيلة المذكورة . وقد عُنِيَ بأن يفصّل بينهما في السياق ، فجاء كلامه على كل منهما قائماً بذاته (أنظر صفحة ١٦ — ١٧١) . ثم إنه ضرب مثلاً على التصورات الدينية المخيلة الهندية التي تعمل عن طريق الرمز per symbolisme فتمثل الآلهة بعدة أرؤس وأذرع وأرجل لتدل على الفطنة والعزة اللتين لا حد لهما[1]

وهذا الأسلوب في التمثيل والتعبير معروف ؛ وهو الرمز بشيء إلى شيء آخر ، وهو أولى فطري ، ولا صلة له — من حيث الجوهر — بالرمزية في الأدب (والتصوير) ، وهي الرمزية التي ضربها ريبو مثلاً على بعض ألوان الفن كما مر بالقارئ . وقد شرح ريبو هذه الرمزية ، وبيّن أغراضها وطرائقها على حسب مظهرها ومخبرها قبل عام ١٩٠٠ ، فدل على أنها تقصد إلى الإيحاء فتبسط الإبهام على الأشخاص والأشياء حتى إنها تطلقها من قيود الزمان والمكان ، وربما لم يعين الأشخاص بأسماء فيقال : « هو » و « هي » ... (ص ١٦٩)

ذلك مجمل حديث (ريبو) ... أفيدري القارئ ماذا صنع السيد متولى ؟ خلط رمزية المخيلة الهندية — وهي من باب الرمز بشيء حسي إلى شيء معنوي — بالرمزية في الأدب التي تطلب الإيحاء من باب بسط الإبهام ! ! ودليل ذلك أنه استشهد بهذه وبتلك ، وهو يتكلم على ما يسميه « الرمزية في الفن » عند ريبو فجعل مصدرها واحداً ، أي « فن الرمزيين » ليأخذ على صاحب السرحية أنه جعل الرمزية في توطئته تعدل عن الرمز بشيء إلى شيء آخر ، إلى « استنباط ما وراء الحس من المحسوس وإبراز المضمر وتدوين اللوامع والبواده » ! !

والآن ألا يصح أن نقول لمتولى — وقد أخذ علينا مزهواً متطاوساً أننا لا نحمل شهادة ماجستير — إننا نحمد الله على هذا المكروه الجميل ما دام لم يسلمنا إلى ما هو غير جميل ، وأن نهمس في أذنه بأن الألقاب العلمية ، مهما كبرت ، فإنها لا تخلق الرجل المخلص والأديب الحق ، وأن هذه الألقاب إنما تزهى بحاملها ، وإلا فهي تيجان من ورق على رؤوس من خشب ! !

أعتقد أن هذا تساؤل مشروع ، ما دام (الصديق) محمد متولى لم يتعوذ بالله وبالفن من التكلف لما لا يحسن والعجب بما يحسن ، ولم يتعوذ بالأدب من السلاطة والهذر !

زكي طليمات

(١) مقال الأستاذ متولى . الرسالة رقم ٣٧٦ ص ١٤٤٩ ، العمود الأول س ٢٢ — ٢٣

(١) ص ١٦٩ « المخيلة الخلاقة » لريبو